كلمات

شجرة العيد

أبرز ما انطبع في ذهني من مشاهد عيد الميلاد هو شجرة العيد.

أتأمّلها خضراء رغم انفصالها عن جذورها، زهراء رغم اشرافها على الهلاك، لم تصفرّ أوراقها كمداً، أو تنكمش أغصانها جزعاً، عندما امتدّت إليها يدُ الإنسان، تبتر الجذع الريّان، وتحمل الفرع اليتيم في حضن التربة الأم، إلى صدر الدار الغريبة، حيث لا شمس ولا ندى ولا خفقة جناح، ولا جيرة أرواح.

دمية بلا حراك، سدّوا في وجهها منافذ الفضاء، ومسارب النسيم، وغمروها بضباب من أبخرة التبغ والخمر والادهان.

لعبة للأطفال، يتجاذبون أطرافها، فلا تصيح بل تهمس بالأنين الرقيق، مخافة أن يبتعدوا عنها، تبسط ذراعيها فوقهم كأنها تبارك رؤوسهم الطائشة، وتميل بحملها نحوهم كلما أثقلوها بالعلب والتمائم في شوق إلى لمسات أيديهم البريئة. لقد زرعت الأحلام في قلوبهم، فحصدت البسمات من شفاههم.

ليلة السلام على الأرض، هي ليلة استشهادها وساعة المسرّة للناس هي ساعة احتضارها.

السماء تنسج لها الأكفان البيضاء، بينما الأولاد يرقصون حولها، والنجمة تودّعها بشعاع كئيب، بينما ربّة البيت تغمض عيون النافذة، فإذا أطلّ الصباح ألفاها هيكلاً متداعياً تعرّى من الحلى والشموع، وانطرح بين أحطاب الموقد لكي يُشيع الدفء في المنزل من أنفاسه المحترقة.

انها لا تجتاز محنةً بل تؤدّي رسالة، ويسعدها أن تختم أدوار حياتها بدور مفيد، وأن تلفظ روحها في جو البهجة والترانيم، سيّان عندها قصّرت الحياة أم طالت، ما دامت قد اتسعت لرسالتها.

وما أجملها رسالة تجعل من بنت الغاب المغمورة سيّدة العيد وعروس البيت، تحفّها الأنوار وتزفّها الأهازيج.

وما أشرفها رسالة ترفع سليلة التراب من حضيض المتعة الدنيا، إلى قدس التضحية المثلى، فتشترك مع البشر في نعمة الميلاد، ومع الله في معجزة الفداء!

كثيراً ما قلتُ في نفسي، في غمر مآسينا المعيشية الحالية والوباء الزاحف:

ألا ينبغي لي، خصوصاً في هذه الأزمنة، أن استمرّ في جعل حياتي شجرة ميلاد مستمرة؟

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه